أدب الرحلة من الغرب الإسلامي إلى بلاد الحجاز بين الماهية والأثر

Journey literature from the Islamic West to the country of Hijaz between essence and impact

د. مختار حسيني *

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط (الجزائر)

m.hoceini@crsic.dz

تاريخ الإرسال: 2023 /03/04 تاريخ القبول: 2023 /03/26 تاريخ: النشر: 2023/06/10

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بأدب الرحلة، من جهة الماهية والأثر، خاصة عند العلماء والأدباء المغاربة الذين اتجهوا في رحلاتهم من ديارهم إلى بلاد الحجاز، كما يهدف إلى الكشف عن طبيعة الوعي المغاربي بالشرق عموما، وببلاد الحجاز خصوصا، وهو وعي صنع خصوصيته التي شكلت شخصيته الفنية في مجال الأجناس الأدبية عن طريق الرحلة، وعبر جملة من المضامين الفكرية والفلسفية التي خطتها أنامل شخصياته المغاربية التي لا تخلو من خصوصية الصناعة والإبداع، والتفرد الذي ميز نظرتهم للحياة والأفكار والأفراد والمجتمعات والحضارات.

ومن ثم يصبح أدب الرحلة من هذه الزاوية يمثل مصدرا فكريا وأدبيا ومعرفيا ثرا، تضطرم في أفقه الممتد أخبار العوالم ومظاهر الوجود وقصص الناس والقيم والفلسفات والأفكار، وينم عن نوع مهم من الوعي بالعالم والوجود، يتجاوز سرد القصص ووصف المشاهد وذكر الأحداث إلى التحليل والتفكير والاستنتاج، فضلا عن المتعة والذوق والفن والجمال الذي تطرب له النفوس وترتاح له الأسماع يتفاعل معه الوجدان.

الكلمات المفتاحية: أدب، رحلة، المغرب الإسلامي، الحجاز، ماهية، تأثير.

Abstract:

This research seeks to define travel literature, its essence and impact, especially among the scholars and writers of the Islamic West, who headed on their journeys towards the Hijaz. The research also aims to reveal the nature of the Maghrebian awareness of the Orient in general, and of the Hijaz in particular, It is an awareness that made his privacy that formed his artistic personality in the field of literary genres, through the journey, and through a number of intellectual and philosophical contents recorded by the Maghreb personalities, who made their uniqueness that distinguished their view of life, ideas, individuals, societies and civilizations .

Then travel literature from this angle becomes a rich intellectual, literary and cognitive source, in which news of worlds, manifestations of existence, stories of people, values, philosophies and ideas intertwine, and goes beyond storytelling, describing scenes and mentioning events to analysis, thinking and conclusion, as well as pleasure, taste, art and beauty, to which souls rejoice. The ears are comfortable for him, and the conscience interacts with him.

Keywords: literature, journey, Islamic Maghreb, Hijaz, essence, influence.

مقدمة:

إن أدب الرحلة واحد من أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا الإسلامية والعربية، وهو عبارة عن نصوص لكتاب دونوا رحلاتهم ويومياتهم وأفكارهم وانطباعاتهم بأسلوب أدبي وتصوير فني أنيق، وسجلوا مشاهد ما عاشوه من أحداث وما تولد لديهم عنها من أفكار، وتبلور في خلدهم من تجارب وخبرات، وقد اشتهر هذا النوع من الأدب في بلاد الغرب الإسلامي التي كانت بلاد المشرق تستقطب علماءها، وتشدهم إليها شدا، وذلك بالنظر للدوافع الذاتية أولا، والتي دفعت إليها مكانة الحج والعمرة في قلوب المسلمين عامة، والتي كانت تتطلب السفر الطويل والبعيد، إضافة إلى محورية بلاد الحجاز في العالم الإسلامي سياسيا ودينيا وعلميا، حيث كانت تشرئب إليها الأعناق، وتتوق إليها النفوس طلبا للعلم وسعيا في مدارج المجد، وليس هذا الأمر بالمستغرب أو

المستبعد، فلطالما كانت بلاد الحجاز منذ أن فضلها الله ببعثة نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – ونزول كتابه محط اهتمام الباحثين والدارسين وطلبة العلم والعابدين والزاهدين، فقد كانت النّخب المثقفة تشد إليها الرحال من مختلف بقاع الأرض، من مسلمين وغيرهم، فها هي قوافل المستشرقين تتخذ منها قبلة لدراساتها وأبحاثها، محاولة التعرف على علومها ومجتمعاتها ودينها وتراثها، والواقع أن أهم من يمثل هذا الاهتمام الغربي بالمشرق عموما هو ما عرف بالاستشراق والمستشرقين "الذين ملأوا دروب الشرق، ورسموا له صورا ستملأ مجلدات لا تحصى عددا، خصوصا في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيلاتهم، وتمهد الرأي العام، تاليا، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق"[1].

ركّز أدب الرحلة لدى رحالة الغرب الإسلامي أساسا على تتبع مظاهر الحياة البشرية والعمرانية، وعلى ملامح المجتمعات والأفراد العلمية والفنية، وأنماط العيش والعادات والتقاليد والحقوق والقوانين والوقائع والأحداث. فرسم كاتبوه بكلماتهم ما وقفوا عليه في رحلاتهم من كل تلك المظاهر، في شكل صور فنية، وبمضامين فكرية وفلسفية، تقرب مظاهر النهضة أو الانحطاط في تلك المجتمعات، "مدفوعين غالبا بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساسا، من باب طلب العلم، واستلهام التجارب"[2].

1. السياق التاريخي لأدب الرحلة

السفر ظاهرة إنسانية لصيقة بوجود هذا الإنسان، مذ كانت حاجته ماسة إلى الاسترزاق وطلب ما تتوق إليه نفسه؛ من علم أو جاه أو سلطان، أو هروب من ظروف، أو فرارا لأخرى، وتعود أسباب بروز هذه الظاهرة عند المغاربة أكثر من المشارقة إلى العامل الديني أساسا، المتمثل في ركن الحج الذي حث عليه الإسلام، ولم يلتمس للمتقاعس عنه عذرا من الأعذار، ومكانة الكعبة في الدين والمعتقد، فهي قبلة كل مسلم في الصلاة، إضافة إلى ذلك الفيض النفسي المليء بمشاعر الشوق إلى بيت الله الحرام، وإلى زيارة قبر النبي – صلى الله عليه وسلم –، خصوصا لحظة بقاء

المسلم المغاربي مودعا للركب السائر إلى بيت الله الحرام، فيقف خلفه وقد ارتحل، مودعا والدموع تنهمر، وكم أفرزت هذه اللحظات المشحونة بالشوق والمكابدة والمعاناة دررا سنية من القصائد والخطب في الأدب الفصيح والشعبي على حد سواء، ومن ثم فإن المسلم المغاربي كان يجد نفسه دائما مشدودا إلى بلاد الحجاز برباط ليس له منه فكاك، حتى إنه ليستأنس بتسمية ولده أحيانا: "المكي" نسبة إلى مكة، و"التهامي" نسبة إلى تهامة، و"المدني" أو "المداني" عند العامة نسبة إلى المدينة، و"حجازي" نسبة إلى الحجاز، وغير ذلك من التسميات كثير، وهو ما يكشف لنا سر توق المغاربة إلى بلاد الحجاز.

لقد ازدهر أدب الرحلة في بلاد المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة تحديدا، حيث "عرف نوعا من تطور مثل هذه الرحلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحكّام، لتوفير هذا النوع من المعرفة للمواطنين، ولم يقلّل من شأن الرحلة الحجازية إلّا ما ظهر من ميل لتفضيل الجهاد على الحج، في أعقاب العدوان المتوالي على المسلمين في الأندلس، وذلك اعتمادا على فتوى لابن رشد، ردد صداها النّاصري في كتابه "الاستقصاء"، وهي تعطي الأسبقية للجهاد على الحج"[3]

وفي رحلة الحج نجد الأديب بطبيعته الوجدانية الفنية يسعى إلى أن يصوغ مشاعره وملاحظاته، وما يريد أن ينقله للأهل هناك في الديار بالمغرب الإسلامي فنّا وأدبا، فيعرف بالبقاع التي زارها، والأركان والواجبات التي أداها، والبلدان والمجتمعات التي مر بها، والأحداث التي شاهدها، ويُحدّث بمن عرف وبمن سمع من رجال وأوطان، وبكل ما يتعلق برحلته بطابع أدبي جميل، خاصة أنه يَتاح له في الرحلة من الوقت ما لم يتح له في المقام.

وممّن عرف من كتاب أدب الرحلة في بلاد الغرب الإسلامي الرحالة ابن جبير الأندلسي، (ت 578 هـ)، وابن رشيد الفهري السبتي (ت 683 هـ)، ومحمد العبدري الحيحي (ت 688 هـ)، وأبو القاسم التجيبي (ت 695 هـ)، وابن بطوطة (ت 725 هـ)، وخالد بن عيسى البلوي (ت 736 هـ)، وابن الحاج النّميري (ت 774 هـ)، ومحمد بن سعيد الرعيني (ت 778 هـ)، وناصر خسرو علوي في رحلته إلى الحجاز، ورحلة القاضي أبي بكر ابن العربي الأشبيلي صحبة أبيه عبد

الله عام 489 هـ إلى مدينة السلام، وهي رحلة بقيت حديث المجالس، بما تضمنته من "مكتوب الخليفة المنقول في أيدي الناس" على حدّ تعبير ابن خلدون، ورحلة أبي حامد الأندلسي الغرناطي التي ضمنها كتابه "تحفة الألباب"[4]. ومن قريب العهد نجد رحلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، المولود بتونس سنة 1293 هـ والمتوفى بالقاهرة سنة 1377 هـ، والذي كانت له رحلات علمية في طلب العلوم والآداب والتفقه في الدين، فخرج "من تونس إلى بلاد المشرق فرارا بدينه بعد أن طاله قهر الاستعمار الفرنسي وصدر في حقه حكم الإعدام، فخرج سنة 1912م، فزار خلالها مالطة والإسكندرية والقاهرة وبورسعيد ويافا وحيفا ودمشق وبيروت وإسطنبول، ثم عاد إلى تونس، ولم يمض شهر حتى عزم على الهجرة إلى دمشق فراراً بدينه، فارتحل إليها متنقلاً من مصر إلى الشام والحجاز، ثم إلى ألبانيا وبعض بلاد البلقان والأستانة وألمانيا، وفي عام 1920م ارتحل إلى القاهرة، واستقر فيها حتى آخر حياته، وقام خلالها برحلات إلى سورية ولبنان والحجاز"[5]. وقد دون الشيخ محمد الخضر حسين رحلاته وما وقع فيها من أحداث، ودار خلالها من أقوال، تتضمن الكثير من الفوائد العلمية والقيم المعرفية والتربوية.

ويضاف إلى الأسباب التي أدت إلى ظهور أدب الرحلة أسباب علمية، تتعلق بحرص طلبة العلم على الاستزادة من العلوم، خاصة الشرعية منها، ويتعلق بها أيضا سعي البعض منهم إلى لقاء المشائخ والعلماء الذين تضرب لهم أكباد الإبل، لأخذ العلم والحصول على الإجازات العلمية والتبصر ببعض المسائل الشائكة، مما يعتبر تحصيله وروايته عن الشيخ شرفا ما بعده شرف. وبعض الرحلات كان القصد الأول منها حمل كتاب علمي من جهة إلى جهة، قصد تعميم الفائدة منه، مثل الرحلة التي قام بها هشام بن هذيل مكلفا من قبل الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر، من أجل طلب المساعدة على ترجمة مخطوطة ديوسقوريدس المكتوبة باللغة اليونانية، والتي كان الإمبراطور البيزنطي أهداها إلى الخليفة الناصر عام 337 هـ، في حفل مشهود تحدثت عنه المصادر التاريخية والمؤلفات الطبية، وقد استجاب الإمبراطور البيزنطي لرسالة الخليفة الناصر، فبعث إليه بالراهب نيقولا الذي وصل إلى قرطبة عام 340 هـ، وأخرى حملت أبعادا سياسية كأخبار سفارة يحيى بن حكم الغزال (ت 250 هـ) التي راحت إلى بيزنطة ردا على سفارة ثيوفيلوس إلى الأندلس بعد فتح عمورية، وقد لخص أخبارها ابن دحية (ت 633 هـ) السبتي في كتابه "المطرب من أشعار

المغرب"، والتي ظلت حديث المجالس الأدبية والسياسية، لما تضمنته من طريف نكتة، وجميل ظرف[6].

2. أهمية أدب الرحلة

يتجاوز أدب الرحلة المضامين السردية والأبعاد الفنية إلى قيم أخرى كثيرة، أهمها القيمة التاريخية، بوصف نصوصها مصدرا ووثيقة تاريخية للأحداث، وتاريخ الأفراد والمجتمعات والدول، وللعلاقات السياسية بين الكيانات التنظيمية التي تناولتها الرحلة، فرحلة ابن بطوطة[7] على سبيل المثال "تعتبر من هذه الناحية تاريخا لما أهمله التاريخ ... فمن خلال الرحلة استمعنا لابن بطوطة وهو يستعرض أمامنا أقطاب الدول الكبرى التي كانت تهيمن في عهده على معظم أطراف الدنيا، وكان عددهم سبعة: سلطان المغرب، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراقين، وسلطان الترك، وسلطان تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين"[8]. وفيها سد لبعض الثغرات المهملة من لدن بعض المؤرخين التقليديين، خاصة فيما يتصل ببلاد المغرب الإسلامي، فيملؤها الرحالة ابن بطوطة، مثل حديثه عن مصادفته لسفارة من تونس في قصور بني عبد الواد، وهي السفارة التي رافقها عند عودتها لتونس ... والتي نقرأ فيها حديثه عن ظهور العاهل الحفصي أبي يحيى أبي بكر في عيد الفطر 725 هـ، حيث يستفيد المؤرخون في كتابة تاريخ هذه المغارب مما جاء في هذه الرحلة، سواء عندما كان ذاهبا للحج، حيث كان هناك ثلاثة مغارب، أو عندما كان عائدا حيث كان هناك مغرب واحد[9].

ومن أمثلة القيم التاريخية في رحلة ابن بطوطة استقبال الأميرة بيلون خاتون، حرم السلطان اختيار الدّين أورخان بك بن عثمان الأول، ومعركة مرج الصفّار التي وقعت في رمضان 702هـ، بين المماليك والتتار، بين الملك الايلخاني قازان ملك التتر والملك الناصر. وبين المماليك وبلاد المغرب، حيث تلقى المماليك هدايا هي عبارة عن أجراس ضخمة انتزعت من كنائس الروم، ردا على إتلاف هؤلاء لعدد من منابر المساجد[10].

وقد قدم ابن بطوطة كثيرا من المعطيات التاريخية التي تفيد المؤرخين، مثل استعمال بعض حكام الهند لكلمات حضارية تنزع إلى القيم الإنسانية وترفض خطاب الكراهية، ككلمة العزيز لمن دخل

بلادهم من الأجانب، بدلا من كلمة الأجنبي والغريب التي حرموا استعمالها على شعوبهم، وكثيرا من المعلومات القيمة عن العائلات الحاكمة في بلاد الحجاز، وعلاقاتهم بالمماليك، وبما ساد بينهم من منافسة وتسابق، وأنوع من العلاقات التي كان أبطالها أفراد من الأسر الحاكمة؛ مثل الأمير قاسم حفيد جماز بن شيحة بن هاشم الذي ذهب غازيا في غرناطة، واستشهد قرب الجزيرة الخضراء[11] وغير ذلك كثير من الأحداث والمعلومات التاريخية التي يستفيدها التاريخ وغيره من المجالا العلمية والفنية من أدب الرحلة كعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا والجغرافيا وعلم الأنساب والرواية والمسرحية والشعر، وحتى الطب والصيدلة وعلم النبات والحيوان وغيرها من العلوم.

كما يمتاز أدب الرحلة بالتعريف الصريح أو الضمني بمؤلف الكتاب، خاصة عند حديثه عن محطات رحلته وعن مشاهداته، وما يعتلج نفسه حينها من مشاعر وأحاسيس، وبما يعجبه وما لا يرتضيه، والذي يصب في مجالات علمية متنوعة يمكن لها الاستفادة مما فيه من معارف وإلماعات، مثل علم النفس والتربية والفلسفة والاتصال وغيرها. لأن هذا النوع من الكتابة يعبر عن تفاعل وانفعال وفكر وإبداع وفلسفة وتنظير بعيد عن كل الإملاءات والضغوط.

3. أثر الرحلة في علم الإنسان وأدبه

تعتبر الرحلة من وسائل الاستزادة في مجال العلم والمعرفة والأدب، ومن أهم سبل صقل النفوس واكتساب الأخلاق، وصلاح الحال في النفس والمجتمع، باعتبار ما تزيده معرفة أحوال الناس من التأدب في المعاملة، واكتساب التجارب من علم ودراية بالحسن والقبيح، وبما ينفع وما يضر، وما بليق وما لا يليق. وقد قال ابن وكيع التنيسي قديما:

تغرب على اسْم الله وَالْتمس الْغنَا***وسافر ففَي الْأَسفَار خمس فَوائد

تفرج نفس والتماس معيشة***وعلم وآداب ورفعة ماجد

فَإِن قيل فِي الْأَسْفَار ذل وغربة***وتشتيت شَمل وارتكاب شَدَائِد

فللموت خير للفتى من مقَامه***بدار هوان بين ضد وحاسد[12]

وفي هذه الأبيات تنبيه على ما في الرحلة من فوائد، تزول معها متاعب السفر، وتذهب في سبيلها مكابدة الحل والترحال.

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أثر الرحلة في علمه وجمعه، فقال: "كانت الرحلة إلى المشرق لاجتناء أنواره، وقضاء الفرض والسنّة في مطافه ومزاره: والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره: فزدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الدّيار، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار، وأتبعت بها ما كتبته في تلك الأسطار، وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النّواحي، وملوك الأمصار والضواحي"[13] وأفرد في مقدمته فصلا هو "الفصل الحادي والأربعون: في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلّا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلّطة على المتعلّم حتى لقد يظن كثير منهم أنّها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلّا مباشرته لاختلاف الطّرق فيها من المعلّمين. فلقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنّها أنحاء تعليم وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعدّدهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[14]

وأما عن الدين الإسلامي فقد شجع على الرحلة، ودعا إلى الضرب في الأرض، وعدم الركون لما يفرضه الواقع من قيود تحد من الحركة والحرية والاسترزاق، خاصة إذا كانت الرحلة في طلب العلم والدعوة إلى الله والفرار بالدين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: 11]، وفي هذه الآية أمر بالرحلة للاعتبار والاستبصار، وإلى السعي لإدراك

الحقيقة خارج صندوق الاستكانة والتقوقع والضغوط، وقال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبَة: 122]، وَهو حثَ صَرِيح علىَ طلبَ العلَم، َواعتباره فرضَ كفاية فَيَ حق الجماعة، إذ يلحق بالتفقه في الدين كل أنواع العلوم الضرورية للدّين، في رسوخه وديمومته

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: 97]، وقال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[النساء: 100]. وفي هذَا دعوَةَ صريَحة إلَى الرحلة وهجَر بلاد الظلم والضلال إن كانت مضنة للَفتنة عن الدين.

ومن أهم ما يكتسبه المرء من الرحلة خلق الصبر والاحتمال، وترويض النفس على السلوى حين يلم بها التعب في البدن، أو الوحشة والشعور بالغربة في النفس، ومنها لقاء الرجال الذين تسر بلقائهم النفوس من ذوي العلم والأدب ومكارم الأخلاق، وقد روي أن يحيى بن يحيى بن بكير النيسابوري "قرأ على مالك الموطأ ولازمه مدة للإقتداء به"[15]، وعُوتب الشافعي على كَثْرة الترحال فَقَال:

رِزْقِي تشَتت فِي الْبِلَاد وإنني***أسعى لجمع شتاته وأطوف

فكأنني قلم بأنمل كَاتب***وكَأن رِزْقِي فِي الْبِلَاد حُرُوف[16]

وفي مفارقة الديار التي تضيق بطموح الفتى، ويقل بين أهلها قدره، يقول أسعد بن إسحاق:

تحولت عن تلك الديار وأهلها***وآثرت قول الشاعر المتمثّل:

إذا كنت في دار يهينك أهلها***ولم تك مسجونا بها فتحول

وقال الزبيدي:

الفقر في أوطاننا غربة***والمال في الغربة أوطان

والأرض شيء كلها واحد***والناس إخوان وجيران

وقال إبراهيم الصولي:

لا يمنعنّك خفض العيش في دعة***نزاع نفس إلى أهل وأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت***بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران[17]

ولا بقف فيض الرحلة وعطاؤها على صاحبها وحده، بل قد يعم علمه أهل بلده حين يرجع إليها مزودا بالعلم والأدب، ليكون شمسا تذيب جليد البلد، وتبعث الدفء في قلوب أبنائها، فقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس مثلا بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته المشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود، كما استفادت من كثير من العلماء الذين رحلوا إليها من الشرق، مثل: تاج الدين بن حمويه السرخسي، وأبي علي القالي، وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المئة السابعة إلى المشرق، فبرع في العقليات والنقليات، ورجع إلى تونس، فأتبعها بعلمه الكثير، وأسلوب تعليمه البديع، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك، وابن السبكي، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان، وابن خلدون والشافعي. وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة، فيقول:

والمالكي ابن نصر زار في سفرٍ***بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً***وينشر الملك الضليل إن شعرا[18]

وخلاصة لما سبق يمكننا أن نقول إن العلماء أشبه ما يكونون بالمطر، أينما وقع نفع، وكنحل العلم والأدب والخلق، يحمل النفع والفائدة عبررحلاته من بلد إلى بلد.

4. أثر الرحلة في الأدب

إن الأدب وليد المران وكثرة المراس، وليس وليد الموهبة وحدها، وكم من أديب خانته البلاغة حين وضع الكلام في غير الموضع الذي يقتضيه الذوق والحكمة، المتأتيان من طول التجارب ومعرفة الرجال ومقاماتها، وارتياد المجالس وأدبياتها، ولذلك قيل: إن أعرابياً جاء يمدح خليفة، فقال له في مدحه:

أنت كالكلب في حفاظك للعهـ***ـد وكالتيس في قراع الخطوب

وقد خانت هذا الأعرابي البلاغة المتعلقة بمطابقة المقال للمقال، لأنه لم يراع مقام الخليفة المخاطَب، وليس ذلك لقصد قصده، وإنما لأنه لم يخبر من أحوال الخلق إلا التيوس والكلاب وما شابهها من عناصر بيئته التي كونت مخيلته، فأراد أن يمدح الخليفة بصفات هذه الحيوانات، فغضب الخليفة، إلا أنه رأى من صدقه وصفاء سريرته ما دفعه إلى استضافته في القصر بين الخضرة والأنهار والأزهار زمنا، وقد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله:

عيونُ المها بين الرُّصافَة والجسرِ***جَلَبنَ الهوَى من حَيثُ أَدري ولَا أَدري[19]

وقد متح من تجربته الجديدة في الرصافة الغزلان والقصور وغيرها، مما أثرى مخيلته وصقل موهبته.

ومن النماذج الحديثة في أدب الرحلة ما كتبه الإمام محمد الخضر حسين تحت عنوان: الرحلة الجزائرية، والتي قال فيها: كنت أُسعفت فيما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف المملكة الجزائرية، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها؛ لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية، وجلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة، وعاداتها العامة؛ فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان. وما برحت هذه الأمنية تتمثل في الخيال، وتجول في العقل، حتى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان المعظم من هذه السنة. ولما استقر بنا النوى من حيث ابتدأ، وصقل الإياب مرآة الصدور مما مسها به البعاد من الصدأ، قبضت قبضة من آثار سفرنا هذا، ونبذتها في صحائف هاته المجلة[20]؛ عسى أن يعتبرها مطالعوها

الكرام بمثابة فصل انتزعت شذوره من مجلد ضخم في أنباء الأمة الجزائرية من جهة معارفها وأخلاقها"[21]. ثم يواصل العالم الأديب سرد رحلته بأسلوب فني بديع فيقول: "عقدت العزيمة على الظعن في الساعة الثامنة صباحاً من اليوم الخامس من الشهر المذكور (شهر رمضان سنة 1322 هـ)، واتخذت سبيلي في البر؛ لأنه أجمل منظراً، وأقل خطراً، فانسحب بنا القطار وهو يطوي البيد طياً، ويجوب من المفاوز الفسيحة مكاناً قصياً، إلى أن نفخ نفخة الغيور الكريم، ثم سار سيراً رويداً، واستوى على محطته الواقعة على جناح من بلد "سوق أهراس" في الساعة الرابعة مساء. فهبطت متدلياً إلى المنزل الذي أعدّ لنا، وبعد أن نفضت نقع على ما علق بنا من النصب، تطوفنا في أغلب مناهجها المتسعة، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسبة، ولعدم أكبر ساحتها يمكن الإحاطة بها في مدة وجيزة. وعند مغيب الشفق توجهت إلى مسجد لاغتنام فضيلة الجماعة، وبعد أن قضيت الصلاة، وتأهبنا للانصراف، قام من الجماعة رجل تلوح على وجهه سمة أهل العلم، ودنا مني، وسلم علي سلام ذي المعرفة، ثم مسك بيدي، وتقدم بي إلى محراب المسجد، وأومأ إلي بالجلوس، ثم استدارت الجماعة على هيئة درس، ورأيت في يد أحدهم سفراً، فالتفت إلى ذلك الفاضل، وقلت له: هل لكم درس في هاته الساعة؟ فقال: نعم، درس في التوحيد، ولكن نريد أن نعوضه بمسامرة علمية معكم. فجرت على بساط المسامرة مسائل بعضها في العبادة، وبعضها في غير ذلك"[22]

وأما عن أثر رحلات علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق العربي عموما، وإلى بلاد الحجاز خصوصا فنذكر فضل أبي العباس المقري على المشرق والمغرب على حد سواء، فقد ذكرت المصادر أن فضله كان كبيرا في نقل علم الأندلس وأدبها وشعر شعرائها، مما أثر في رقة الشعر المشرقي، ويتجلى هذا الأثر خاصة في حديثه الدائم عن وزير الأندلس وعالمها وأديبها لسان الدين بن الخطيب، ونشره لأدبه وعلمه وفكره، حتى إنه بدأ في دمشق بتأليف كتاب نفح الطيب، وقد رويت الأخبار أن أحمد الشاهيني الذي كان آنذاك كبير أدباء دمشق وشعرائها وفضلائها، تمنى على صديقه وضيفه أبي العباس أن يكتب كتابا عن لسان الدين، يعرف بأحواله وأخباره وأدبه وكتبه، فاعتذر المقري أول الأمر عن الإقبال على مثل هذا العمل الجليل؛ لأنه لا يستطيع إيفاء ابن الخطيب حقه، فلما ألح الشاهيني في طلبه استجاب له المقري. وجعل عنوان كتابه: "عرف الطيب

في التعريف بالوزير ابن الخطيب"، ثم عن له أن يعزم على زيادة ذكر الأندلس جملة، ومن كان يعضد به الإسلام وينصر وبعض مفاخرها الباسقة، ومآثر أهلها المتناسقة، فلما أخذ الكتاب سمته الجديدة بهذه الإضافة رأى المؤلف أن يعيد النظر في عنوانه فجعله "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"[23].

وقد ضمن المقري كتابه تعريفًا ببعض الشخصيات الأندلسية التي رحلت إلى المشرق، وكانت الرحلة إلى المشرق من كمال علمهم وضرورة تثقيفهم، وهؤلاء الذين ذكرهم المقري في نطاق الرحلة من الشهرة ووفرة العلم وسعة الثقافة بمكان، فكل من رحل من الأندلس ذكره المقري في هذا القسم من كتابه وترجم له، ومنهم الوشاح وأبو بكر بن زهر، ويحيى الغزال.

ومن أدب الرحلة في كتاب المقري ما جاء في المقدمة البديعة التي تضمنت أحوال رحلته وأحداثها، من سفر في البر والبحر، ووصف للمراكب والأمواج والرياح، وما يعتري راكب البحر من مشاعر الرهبة والخوف، ثم ما يختلجه من شوق إلى بلاد الحجاز، حيث البيت العتيق والروضة المطهرة على ساكنها الصلاة والسلام، ويصف بينهما أرض الكنانة ونيلها، ويتمثل بما قاله ابن ناهض فيها:

شاطئ مصر جنة***ما مثلها في بلد

لا سيما مذ زخرفت***بنيلها المطرد

وللرياح فوقه***سوابغ من زرد[24]

الخاتمة :

أخيرا، لا بد من الإشارة إلى أن هذا البحث سعى إلى دراسة جانب من جوانب الرحلات التي قام بها العلماء والأدباء والحجاج من الغرب الإسلامي إلى الديار الشرقية عموما، وإلى بلاد الحجاز خصوصا، وأن من شأن هذا البحث أن يؤكد قيمة أدب الرحلة ويبرز بعض النصوص الثرية التي تكشف عن قيمة العلماء المغاربة وهمتهم في ارتياد السفر وارتقاء سلم المجد، واستعدادهم للمغامرة

لأجل نيل المنى، وأنهم فوق تسجيل الأحداث ووصف البقاع والناس قد وشحوا كلامهم بالمتعة والجمال، وجمعوا المعرفة بالفن، وربطوا بأدبهم بين الشرق والغرب، وأن أدبهم في الرحلة يبقى يتضوع عبقا حضاريا، ويتكشف عن مكونات الذات المغاربية المسلمة.

كما يمكننا القول إن أدب الرحلة الذي تميز به المغاربة يجمع بين الفكرة وأدب الفكرة، ويخاطب الفكر والنفس معا، فينقل إلى القارئ الأفكار المستقاة من الواقع الذي تحيط بجوانبه الحواس، مطعمة بوعي الفلسفة ومدارك الحقيقة، وكأن القارئ لهذا النوع من الأدب يشاهد عرضا على خشبة مسرح الحياة، غير أنه فوق ما يعرض من مشاهد يضفي على على كل جزء فيها العمق والمتعة والجمال.

المراجع:

1. ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ
2. الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م
3. الجَنْدي بهاء الدين، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ط2، 1995م
4. ابن الخطيب محمد بن قاسم بن يعقوب، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ط1، 1423هـ
5. الخضر محمد حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، دار النوادر، سوريا، ط1، 2010م
6. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1988م

7. الشكعه مصطفى، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 2004م
8. ابن فرحون برهان الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت
9. ابن فضلان أحمد بن حماد، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2003م
10. المستعصمي محمد بن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م
11. وافي علي عبد الواحد، في الاجتماع اللغوي، تطور اللغة وارتقاؤها، مجلة الرسالة، العدد 376، بتاريخ: 16سبتمبر 1940م

---

[1] أحمد بن فضلان ابن حماد، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2003م، ص07

[2] نفس المرجع، ص08

[3] ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ، 138/1

[4] ينظر: نفس المرجع، 143/1

[5] محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، دار النوادر، سوريا، ط1، 2010، 4/11

[6] ينظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، 143/1

[7] رحلة ابن بطوطة في الأصل "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، كتبها ابن بطوطة أثناء رحلته من مسقط رأسه طنجة حاجا إلى بلاد الحجاز، وخلالها كل البلاد التي مر بها، حيث وصل إلى حاضرة تلمسان ثم مليانة ثم الجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة وتونس وسوسة وصفاقس وقابس وطرابلس والإسكندرية ودمياط والقاهرة وآسوان، ثم غزة والخليل وبيت المقدس والرملة ونابلس واللّاذقية وعكّة وصور وصيدا وطبرية وبيروت وطرابلس وحمص وحماة والمعرة وسرمين وحلب وأنطاكية واللاذقية وبعلبك ودمشق ومنها إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة. ثم العراق والقادسية والنجف والبصرة، ثم عبادان وماهشهر وشوشتر وأصفهان وشيراز بإيران. كما سافر إلى سواحل أفريقيا الشرقية واليمن وعدن والظفار وعمان وخليج فارس وجزيرة هرمز، ولارستان وجزيرة كيش والبحرين وآسيا الصغرى وقونية. وفي المرحلة الثانية: آسيا الصغرى وجنوب روسيا وبلغاريا ونهر الولغا. ثم خوارزم وبخارا ونخشب وسمرقند وبلخ وهراة وطوس ومشهد وسرخس وتربت حيدرية ونيشابور وبسطام وغزنة وكابل. ثم الهند وجزائر مالديو وجزيرة

ملوك وسيلان وبنغالة والصين.وتوفي في سنة 779 هـ، وهو أشهر كتب الرحلات أطلقت عليه جمعية كبمردج لقب أمير الرحالة المسلمين. وترجمت الرحلة إلى عدة لغات عالمية. ينظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مقدمة المحقق، ص125-129

[8] رحلة ابن بطوطة، 135/1

[9] ينظر: نفس المرجع، 135/1

[10] ينظر: نفس المرجع، 135/1

[11] نفس المرجع، 136/1-138

[12] الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، 40/5. وقيل إن الأبيت للإمام الشافعي، ينظر: محمد بن أيدمر المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، 390/5

[13] ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص10

[14] نفس المرجع، ص745

[15] ابن فرحون برهان الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 351/2

[16] الجَنْدي بهاء الدين، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ط2، 1995، 153/1

[17] ينظر: ابن الخطيب محمد بن قاسم بن يعقوب، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ط1، 1423هـ، ص404-405

[18] محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، 14/11

[19] ينظر: وافي علي عبد الواحد، في الاجتماع اللغوي، تطور اللغة وارتقاؤها، مجلة الرسالة، العدد 376، بتاريخ: 16سبتمبر 1940، ص1441. والبيت في المصادر ينسب إلى الشاعرعلي بن الجهمِ، وهي حكاية لم أقف لها على أصل في المصادر التي ترجمت للشاعر.

[20] يعني بها مجلة "السعادة العظمى" التي كان يصدرها هو نفسه في تونس منذ سنة 1322 هـ

[21] نشرت هذه الرحلة في العددين الأول والثاني من مجلة "السعادة العظمى" وفي كتابه: "السعادة العظمى".

[22] نفس المرجع، 27/11

[23] ينظر: مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 2004م، ص583

[24] ينظر: نفس المرجع، 585